خطبة الجمعة التي أيقظتني من النوم

د . مأمون مبيض

وصلت مدينة رام الله في الضفة الغربية قادماً من عمان في الأردن بعد اجتياز عدد من الحواجز آخرها حاجز قلنديا الذي كان لا بد أن نترك السيارة ونجتازه سيراً على الأقدام . كانت الساعة الثانية عشر ظهراً من يوم الجمعة ، واختار الصديق نبيل بأن نصلي الجمعة في مسجد العين في المدينة .

العين ، مسجد حجري البناء ، مكيّف الأجواء ، يقوم أهله ببناء توسعة له .

تقدم الخطيب فكان طويل القامة ، لم أر وجهه حتى صعد المنبر ، إلا أن طول قامته أوحى لي بأنه شاب ، وهذا ما كان .

كان الخطيب مطمئن الجنان ، واثق الكلمات ، ذو ابتسامة خفيفة ، يحمل أوراقاً صغيرة يبدو أن الخطبة أو أفكارها قد كتبت فيها بشكل أنيق .

أثار انتباهي طريقة الخطيب المتميزة في الخطابة ، فذكرتني بخطيبين متميّزين ، الأستاذ عصام العطار في مدينة آخن في ألمانيا ، والأستاذ بهاء الدين في مدينة دبي في الإمارات .

وما شدّ انتباهي أكثر من طريقة الخطابة هو موضوع الخطبة ، حيث تعرض الخطيب لضرورة تحلي المسلم بصفتين هامتين لا بد منهما ، البصيرة والفهم أولاً والهمة العالية ثانياً . يا له من موضوع حيوي ، حيث نجد أننا قد أوتينا إما من غياب أو ضعف البصيرة والفهم ، وإما من غياب أو ضعف الهمة ، أو من كليهما .

وجال الخطيب في هاتين النقطتين شارحاً ومدللاً ومستشهداً بالأدلة والبراهين ، وكل هذا في أسلوب محبب ، لا ينتقد أو يجرّح أو يصغّر المستمعين والمصلين ، كعادة كثير من الخطباء ، وإنما يحاول أن يأخذ بأيديهم منطلقاً من النقطة التي هم فيها ، وصاعداً بهم لمستوى آخر مرتفع .

شعرت بسموّ روحيّ وأنا جالس أستمع إلى الخطيب ، وأتابع حركات وجهه وعينيه . وكانت عيناه وعيناي تلتقي بين الحين والآخر وهو يتلفت يمنة ويسرة .

كم كان سروري عظيم أن قدّر الله لي اجتياز الحواجز العسكرية المختلفة ، وأن

أصل إلى رام الله في الوقت المناسب ، وألتق بالصديق نبيل ، ويشير علينا بالصلاة في هذا المسجد ، وأن يخطب هذا الخطيب بالذات لهذا اليوم بعينه ، وأن يقرر تناول هذا الموضوع في خطبته . كم هي عجيبة هذه الأقدار الإلهية .

كم سررت أن قدّر المولى تعالى أن آتي من أوروبا ، وفي الجمعة الوحيدة التي سأقضيها في أرض فلسطين أن أحظى بسماع هذه الخطبة .

انتظرت بعد صلاة الجمعة أن ينتهي الخطيب من صلاة السنة ، فتقدمت إليه لأسلم عليه ولأشكره على هذه الخطبة التي نقلتنا فيها لأفق آخر رفيع نحن في أمسّ الحاجة إليه . كان الخطيب متواضعاً ، لطيف العبارة ، مبتسم الوجه .

والعجيب في الأمر ، أن أستيقظ في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، وقبل أن يقرع جرس المنبّه ، أستيقظ على رؤية حلم أتحدث فيه لبعض أصحابي عن هذه الخطبة التي سمعتها في رام الله . أفتح عينيّ وأنا أفكر بموضوعيّ البصيرة وعلو الهمة، فأجد نفسي مستيقظاً أنتظر صلاة الفجر .

أخرج مع شروق الشمس من الفندق الذي أنزل فيه ، وأتمشى في بعض طرق تلال رام الله ، والشمس تداعب قمم التلال والعمارات الحجرية البيضاء . أنظر في شجر الزيتون وشجر التين على جوانب الطريق . أسير وأنا أفكر في فلسطين وشعب فلسطين، وتختلط في ذهني هذه المناظر الجميلة الوقورة في الصباح مع خطبة الجمعة التي أيقظتني من النوم .

أعود لغرفتي لأكتب هذه الكلمات ، ومن ثم لأنزل ، بعد الفطور ، إلى قاعة المحاضرات لبداية نشاط المؤتمر الذي أتيت من أجله بعنوان " الطفل الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال العسكري وسياسات التمييز " ، والذي نظمته مؤسسة برامج الطفولة والعمل الجماهيري بالتعاون مع جامعة القدس .

لا أدري لماذا ، وقد يكون لتعانق كلمات خطبة الجمعة مع شـــجر الزيتـــون والتين ، أو لأن كلمات الخطبة دخلت نفسي ومشاعري ، إلا أني شعرت بالراحة والحبور وأنا أردد في ذهني قوله تعالى ﴿ **أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [إبراهيم : ٢٤-٢٥]